

## إسماعيل صبري

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطني بفطرته وحسن سريرته، أدرك عهد الاحتلال في إبان قوته وسطوته، فتحررت شاعريته، تجاهد الاستعمار، وتمجد المعاني الوطنية، وتخلدها في قصائد غر تشبه أن كون تغاريد من نبع القلب الصافي وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع.

كان شاعراً رقيقاً مجيداً، عميق الوجدان، مقلًا في شعره، محتاطاً في نشر ما تجود به قريحته، كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودي.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦، ثم بمدرستي التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس في الحقوق من كلية "أكس" سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة في سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره.

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء)، واعترف له بذلك زملاؤه، شوقي وحافظ ومطران وعبد المطب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقي لزعامته من قوله في رثائه:

أيام أمرح في غبارك ناشئاً  
أتعلم الغايات كيف ترام في  
تهج المهار على غبار خصاف<sup>(١)</sup>  
مضمار فضل أو مجال قواف  
ومن قول حافظ في رثائه أيضاً:

لقد كانت أغشاه في داره  
وأعرض شعري على مسمع  
وناديه فيها زها وازدهر  
لطيف يحس نبو الوتر

تتجلى في شعره القومي روح الحب الخالص للوطن، والشجو الحزين على مآسيه،  
والاستمسك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم  
عن آماله وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يزر إنجلترا قط، ولم يذهب يوماً إلى  
الوكالة البريطانية، في حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء في ذلك العهد،  
وظالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال، فاستعصم  
وأبى، ولما قيل له لعل لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة، قال: وماذا تفيدني رئاسة الوزارة غير  
إغضاب ضميري وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه<sup>(٢)</sup>.

كان صديقاً صدوقاً للزعيم مصطفى كامل، أيه في جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن  
يكتف مناصرته إياه في أي منصب تولاه.

كان محافظاً للإسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩، و أراد مصطفى كامل أن يلقي بها  
خطبة من خطبة الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذي أعد لإلقاء  
الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبري على الحكومة ما أرادت، وخص  
بإقامة الاجتماع، و صرح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى وألقى مصطفى كامل  
خطبته.

ولما عين وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته  
لمصطفى، وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب  
اللواء ويقضي معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقة له ومناصرته إياه في

(١) المهار: جمع مهرة وخصاف فرس مشهور في العرب.

(٢) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين في مقدمته لديون إسماعيل صبري ص ٣٢.

الوقت الذي كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقي في رثائه لإسماعيل صبري إذ يقول:

ويح الشباب وقد تخطر بينهم  
لو عاش قدرتهم ورب (لوائهم)  
فلكم سقاها الود حين وداده  
هل متعوا بتمسح وطواف؟  
نكس (اللواء) لثابت وقاف  
جرب لأهل الحكم والإشراف

### دعوته إلى الدستور

وانك لتجد في شعر إسماعيل صبري انسجاماً مع سياسة مصطفى كامل وتمجيداً للوطنية ومناصرة للأمة في جهادها للحرية والاستقلال.

قال في قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمي الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور.

سدد سهام الرأي (بالشورى) يحط  
واسبق به واضرب به وأفتح به  
بك منه في ظلم الحوادث فيلق  
ما شئت من باب أمامك يغلق

### حادثة دنشواي

وقال فيها يصور حادثة دنشواي ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذي أصدره الخديو عن مسجونيه.

وأقلت عشرة قرية حكم الهوى  
إن أن فيها بانس مما به  
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا؟  
ما زال يقذي كل عين ما رأوا  
في أهلها وقضى قضاء أخرق  
أورن جاوبه هناك مطوق (١)  
وقضاتهم (٢) ما عاقهم أن يتقوا؟  
فيها ويؤذي كل سمع ما لقوا

(١) المطوق: السجين.

(٢) قضاتهم أي قضاة المحكمة المخصصة التي حكمت عليهم.

حتى حكمت فجاء حكمك آية  
نزلت ترفرف حول كاتب نصها  
شكرتك مصر على سلامة بعضها  
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل  
قانون (دنشواوي) ذاك صحيفة  
هل يرتجي صفو ويهدأ خاطر  
ومضاجع القوم النيام أو اهل  
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً  
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه

للناس طي صحيفة تتألق  
زمرّاً ملائكة الرضى وتحلق  
شكراً يغرب في الورى ويشرق  
ترمي إلى أمر أجل وترمق (١)  
تتلى فترتاع القلوب ونخفض  
والموت حول نصوصها يتفرق؟  
بمعذب يردي وآخر يرهق  
ما دام جارحها المهند ييرق  
فالحلم أجمل والمكالم أليق

### رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعاً شديداً، وشيع جثمانه على مرقدته الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يلقي البيت الأول منها وهو:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعياً

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وقد ألقاها في حفلة تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه، فجاءت آية في بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكأن كل بيت فيها دمة وفاء تذرّفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ويرضيك في الباكين لو كنت واعياً  
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل كما ذقت منه الحب والود صافياً  
سوى أنه يعتاده الحزن كلما رآك عن الحوض المهدد نائياً  
ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى على بعض ما يهوي فيرجع دامياً  
وإن رامه سرب المسرات لم يجد محلا به من لاعج الهم خالياً

(١) يريد الدستور.

ألا عللاني بالتعازي وأقنعا  
والأ أعيناني على النوح والبكا  
وما ناعني أن تبكيأ غير أنني

فؤادي أن يرضي بهن تعازيا  
فشأنكما شأنني وما بكما بيا  
أحب دموع البر والمرء وافيأ

\*\*\*

أيا (مصطفى تالله نومك رابنا  
تكلم فإن القوم حولك أظرقوا  
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة  
وتبكيك لولا أن فيها بقية  
فهل ألت ما بين جفناك والكرى  
فقدناك فقدان الكمي سلاحه  
وبتتا وقد بات رفاقك في الثرى  
ولولا تراث من أمانيك عندنا  
طواك الردي طيء الكتاب تضمنت  
مضاء إذا البيض انتمت لأصولها  
ورأي يجلي اليأس واليأس ضارب  
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا  
فليتك إذا أعبيت كل مساجل  
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض

أمثلك يرضي أن ينام اللياليا  
وقل يا خطيب الحي رأيك عاليأ  
تخالك أعواد المنابر فانيأ  
تعلها من ذلك الصوت باويا  
محالفة أم قد أمنت الأعاديأ؟  
وساري الدياتي كوكب القطب هاديأ  
سقايا الحيا<sup>(1)</sup> نستبئ الدمع هاميا  
كريم بكينا إذ بكينا الأمانيا  
صائفه من كل فخر معانيأ  
غضبنا إذا سماك قوم يمانيا  
على الأفق ليلاً فاحم اللون داجيا  
ذكرناهما حتى نجد التقاضيا  
قنعت فلم تعي الطبيب المداويا  
مع الحبر قلباً يعلم الله غاليا

\*\*\*

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه  
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة  
نحيبك سيفاً بات في الترب مغمداً

سدى فبكي الفخر الذي كان راجيا  
تري الناس فيها فضل (بقراط) باديأ  
تقلده فيما مضى الحق ماضيا

(1) المطر.

## مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسي يملأ القلوب أملاً وشجاعة.

قال من قصيدة له مخاطباً عمر طوسون يشكوه على مواساته جرحى الحرب:

وكم تعهدت جرحي من أسود وغي  
مستجداً من بني مصر إلى شمم  
مستهمياً هامياً و(النيل) في وجل  
إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا  
إذا رأوا تلمة في حوضهم جبروا  
من أن تجود به أيمانكم حذر

## الوحدة بين العنصريين

وقال داعياً إلى الوحدة الوطنية بين عنصري الأمة:

عيني فيك اليوم قبضية  
ويأخذ البر وأي الوفا  
تروي الأسي عن مسلم موجع  
عن الكتاب الطيب المشرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بني المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس في مصر لأبناء مصر من أعداء  
دين عيسى فيكم ودين أخيه  
أحمد يأمراننا بالإخاء  
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا  
مت بتقريفنا دواعي الشقاء  
مصر ملك لنا إذا تماسكنا وإلا فمصر للغرباء

## تنديده بصنائع الاحتلال

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمي حين سقطت وزارته وكان

موالياً للاحتلال خاضعاً له:

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن  
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى  
مكانك يامن من سقوط ويسلم  
وحرمت خوف الذل ما لم يحرم

قلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم (١)

## في الإباء وعزة النفس

ومن قوله في الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائبة (٢) المدل علينا  
لو فرشت الطريق دراً لأخطو  
أنا أغنى من أن يقال فلان  
وفلان تزاورا ما حييت!

وقال في الاستمساك بالكرامة:

لكسرة من رغيف خبز  
أشهى إلى الحر من طعام  
تؤدم بالملح والكرامة  
يختم بالشهد والملامة

## يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:

يا من تزوج باثنتين ألا اتند  
ما العدل بين الضرتين بممكن  
أقيت نفسك ظالماً في الهاوية  
لو كنت تعدل ما أخذت الثانية!

## التوحيد والحرية

وله في تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعراً إلا أنها تشبهه في النغم  
والرنين وقوة الأثر، وهي من الشعر المنثور البليغ. قال:

(١) أي أن مصطفى فهمي كان في منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك  
المكان المنخفض لم تنكسر!.

(٢) التائبة: المتكبر من التيه بكسر التاء.

أحب التوحيد في ثلاثة: الله. والمبدأ. والمرأة.

وأحب الحرية في ثلاثة:

حرية المرأة في ظل زوجها.

وحرية الرجل تحت راية الوطن.

وحرية الوطن في ظل الله.

### تنديده بالظلم والاستعمار

قال في قصيدة له يخاطب (الدواة):

يوم نحس بأجهل الجاهلين  
فاجعليه في قسمة الظالمينا

وإذا الظلم والظلام استعانا  
واستمدا من الشرور مداً

إلى أن قال:

كونت من خيانة تكويننا  
في السياسات حرمة الأضعفينا!

وإذا كان فيك نقطة سوء  
فاجعليها قسط الذين استباحوا

### تنديده بالمستعمرين

قال ينعي على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما في فعلتها من

الغدر ونقض العهود والمواثيق:

راقبني الله أمة الطليان!  
وتسكنت غارب الطغيان  
س بحرب مشبوبة النيران  
هد جهاراً وذمة الجيران  
سلموا من دناءة الأضغان<sup>(١)</sup>

بعض هذا الجفاء والعدوان  
قد ملأت الفضاء غدراً وجهلاً  
وبعثت السفين ترمي طرابلس  
تخرق البحر والمواثيق والعـ  
سيرتها أضغان قوم لقوم

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدي عليهم في هذه الحرب.

— قوم هموا للثأر للأوطان  
— طول جيشاً إلى حمى الحبشان (١)  
يفضحوا مرتين في ميدان

من رآها تجري توهم أن الـ  
لا ورب الأسطول ما حمل الأسد  
إن قوم الطليان أحرص من أن

## الامتيازات الأجنبية

وقال في هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدول الشرقية للأوروبيين قابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدولة:

م فعقوا ما كان من إحسان؟  
ب لظاها يشوي الوجوه عوان؟  
كن مذكّن منبت الكفران  
ر البهاليل من بني الرومان!

ويحهم ما لصنعهم أبطر القو  
ولماذا تمخض السلم عن حر  
منح قد بذرن ف يشر أيـد  
هكذا فلتك المروءات في عصر—

## القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتببيتها الشر تحت ستار الود والصدّاقة:

ما أعد الإنسان للإنسان  
في ظلال السيوف والمران (٢)  
في زمان الآداب والعرفان (٣)

لا يثق بعضنا ببعض وهذا  
إن تسلّم على الغريب فسلم  
ربما أصبح العناق صراعاً

(١) يشير بهذا البيت والذي يليه إلى هزيمة الطليان أمام الأبحاش في معركة عدوه المشهور سنة ١٨٩٦ ويعبرهم بالسكوت عن الأخذ بتأثرهم في هذه المعركة.

(٢) يريد المران الرماح أي القوة المسلحة.

(٣) في هذا البيت ينهك بالدولة الأوروبية وما تتطوي عليه من الغدر ونقض العهود في عصر المدينة والعلوم والآداب.

## التغني بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال:

إذا وني يوم تحصيل العلا واني

لا القوم قوم ولا الأعوان أعواني

إلى أن قال:

فماؤه العذب لم يخلق لكسلان  
أو فاطلبوا غيره ريباً لظمآن  
لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسان  
حتى يميظ لكم عن وجه إمكان  
على مناكب أبطال وشجعان  
ما في المقطم من صخر وصوان  
أمامه بين إعجاب وإذعان  
على نظائره في الكون عينان  
جنا تطير بأمر من (سليمان)

لا تقربوا (النيل أن لم تعملوا عملاً  
ردوا المجرة كدا دون مورده  
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم  
لا تتركوا مستحيلاً في استحالته  
مقالة هبطت من عرش قائلها  
مادت لها الأرض من دعر ودان لها  
بينون ما تقف الأجيال حاشرة  
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت  
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل

\*\*\*

من الصخور بروجاً فوق كيوان بما  
يضعف من صرح وإيوان ما يأخذ النمل  
من أركان نهـلان  
تسعى اشتياقاً إلى ما خلد الفاني  
وغض بنيانها من كل بنيان  
يثني على القوم في سر وإعلان  
بأنهم أهل سبق. أهل إمعان  
في هيكل قامت الأخرى ببرهان  
أمامها صحف من عالم ثاني

(أمرامهم) تلك حي الفن متخذاً  
قد مر دهر عليها وهي ساخرة  
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى  
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة  
فصغرت كل موجود ضامتها  
وعاد منكر فضل القوم معترفاً  
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة  
إذا أقام عليهم شاهداً حجر  
كأنما هي والأقوام خاشعة

تستقبل العين في أثنائها صور  
لو أنها أعطيت صوتا لكان له

وختمها بقوله:

نصيحة الرمز دارت حول جدران  
صدى يروع صم الإنس والجان

أين الأول سجلوا في الصخر سبرتهم  
بادوا وبادت على آثارهم دول  
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة  
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا  
ويل له هتك الأستار مقتحما  
للجهل أرجح منه في جهالته

وصغروا كل ذي ملك وساطان  
وأدرجوا طي أخبار وأكفان  
في الكونن ما بين أحجار وأزمان  
عليهم العلم ذاك الجاهل الجاني  
جلال أكرم آثار وأعيان  
إذا هما وزنا يوما بميزان

### إلى شوقي في منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي، وحينما نفى شوقي من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته، وكان شوقي قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ ببيتين من قصيدة له مشهورة <sup>(١)</sup> قال فيهما:

بعد الهدوء ويهمي من مآقينا <sup>(٢)</sup>  
هاج البكا فحضبنا الأرض باكيننا!

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا  
لما ترقرق في دمع السماء دماً

فأجابه صبري بهذه الأبيات:

في أضلع ذهلت عن دائها حيننا  
قد حار بينهما أمر المحبيننا  
ما بات يبكي دما في الحي باكيننا  
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا وامض البرق كم نبهت من شجن  
فالماء في مقل، والنار في مهج  
لولا تذكر أيام لنا سلفت  
يا آل ودعي عودوا لا عدمتكم

(١) سيرد ذكرها في الحديث عن شوقي.

(٢) يريد شوقي أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن ما يهمي به البرق من المطر مشتق من دموعه.

يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا      أزهار أندلس هبي بوادينا (١)

وقد عاش إسماعيل صبري كريم الخلق، صادقاً عيوفاً، أيباً وفيماً لوطنه وأصدقائه، معتزلاً بكرامته، صريحاً محباً للحق، بعيداً عن الزهو والخيلاء، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفى في ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوز من الشعر والوطنية، والفضائل النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.

---

(١) يخاطب صبري نسمة الأندلس التي عطرتها أزهاره ويعيش في جوها شوقي ويناجيها أن تهب عليه في مصر.